

الدرس السادس



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- لما كان الحديث في الدرس الماضي عن الحكمة، وما تبع ذلك من الجدل والكلام على الجدل في الدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- انتهى الحديث عن الحوارات الواقعية، وإلزام المخالف الكافر وغيره ببعض الإلزامات، والدخول في بعض الأحوال إلى كتبتهم، أو تفاصيل دينهم، أو بعض ما عندهم لإرادة بيان خطأ أو خللٍ أو غير ذلك، وذكرنا أنَّ الدخول في هذا في الجملة قد يكون فيه شيء من الإشكال لأنَّ المراد هو دفع الشبهة وتأسيس الحق، وتأسيس الحق هو الأصل وهو الأولى وهو الأوسع، وباب ردَّ الشبهة إنما هو بقدره، لأجل ذلك في كتاب الله -جلَّ وعلا- ردُّ لشبهة المشبهين، وكلام المؤولين والمبطلين، وجاء الردُّ من الله -جلَّ وعلا- بأبسط كلمات.
- فائدة: التعبير بلفظ "عبارة" عن كلام الله -جلَّ وعلا- قد يكون فيه إشكال، وإن لم نقصد ذات العبارة، لكن لما كان مسالكاً لمسالك بعض الأهواء أنَّهم يقولون: إنَّ القرآن عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله؛ فن دفع هذا الإشكال بأن نقول: إنَّه يأتي كلام الله -جلَّ وعلا- في دفع ذلك في جملة صغيرة أو آية قصيرة تُحصِّل ذلك المقصود.
- الحوارات والدخول في الكلام على الشبهة إنما يُقدَّر بقدر الحاجة إليه، فإذا احتيج إلى التوسُّع لانتشار الشبهة؛ فهذا ظاهر، ولكن نقول: إذا لم تكن الشبهة شائعة فلا نحتاج إلى أن نشيعها، ثم نشيع الردُّ عليها، ما الفائدة من ذلك؟!

لكن إذا شاعت وظهرت، وخيفَ أن يكونَ لها أثرٌ على الموحدين والمسلمين، وعلى أهلِ الهدى -أهلِ السُّنة والجماعة- من أهلِ الضلالة والبدعة؛ فلا شكَّ أنَّ إظهارَ هذه الشُّبهة وتعرّيتها وبيانِ الحقِّ فيها هذا ممَّا جاءت به دلائلُ الكتابِ والسُّنة، وهو مُوافق لما ذكرنا.

مَن يتصدَّى لهذه الأمور؟



- ليس كلُّ أحدٍ، وإنَّما مَن هو مكيَّن في العلم، قادرٌ على حسنِ النَّظر، مستعدٌّ للجوابِ بالآلةِ الشرعيَّةِ واللُّغويَّةِ، وما يتبعُ ذلك من سلاحٍ يُمكنُه من دحضِ تلك الشُّبهة ومنعها.
- ثم من جهةٍ ثانية: الشُّبهة تُقدَّر بقدرها، فإذا كانت ضيقة النِّطاق فلا يُوسَّع الكلامُ فيها، وإذا اتَّسع أو زاد فُيُرَدُّ على الشُّبهة بقدر الزِّيادة، وبقدر المجال الذي تدورُ فيه. فإذا كانت مثلاً تدور بين ما يُسمَّى في العصر الحاضر بالنُّخب أو بأهلِ الثَّقافة أو النَّظر ونحو ذلك؛ فيكون مسار إحياء الكلامِ عليها أو ردِّها في ذلك المسار، وإذا انتقل إلى عوالمِ المسلمين فيكون الحديثُ إليهم، وإذا صارَ ذلك لبعض من تسنَّم لواء الدَّعوة وخُشي أن يتلقَّها أو يقبلها فلا بدَّ أن يُحصَّنوا، وأن يكون ثَمَّ مجالس لدفع هذه الإشكالات، ومنع تلك الشُّبهات. على كلِّ حال هذا جوابُ أحدِ الأسئلة التي ثارت بعد انتهاء المجلس الماضي، ولأهميَّته أحببتُ أن أُستهلَّ به في مجلسنا هذا.

أحوال المدعوين.



- إنَّ الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- لما كان متأهلاً لهذه الوظيفة، متسنِّماً لواء الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- هو هجَّيره في ليله ونهاره، وجميع أحواله؛ فلا بدَّ أن يكونَ على علمٍ وعلى بصيرةٍ بالمدعوين باختلاف أحوالهم، وما يناسبهم، وما يليق بهم، إن كان ذلك في أصل ما عندهم من علمٍ أو ديانة، أو جاهٍ، أو قرابة، أو شيئاً من الأمور احتفَّ بأن يكونَ لهم حال خاصَّة؛ فإنَّه من المهمِّ على الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أن يكون مستحضرًا لهذا الأمر.
- إذا أردنا أن نبينَ ذلك فانظر إلى كتابِ الله -جلَّ وعلا- فإنَّ من أعظم ما جاء في كتابِ الله وفي سنَّة نبيِّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يتأهَّب الدَّاعية لما يليق بقومِه، ولأجل ذلك إذا جئت إلى دعوة شعيب، ودعوة صالح، ودعوة هود؛ كلها دعوة إلى توحيدِ الله -جلَّ وعلا- لكن كان من أوائل ما تحدَّث به شعيب مع قومه عن نقص المكيال والبخس فيها، وحصول الظُّلم وما يتعلَّق بها، لو طُفَّ كان فيما يتعلَّق بإتيانِ الفاحشة، وحصول الشُّذوذ، والتعلُّق بالرجال، وما اتَّبِع ذلك من بلاءٍ عظيم، وهكذا قلَّ في دعواتِ أنبياء الله -جلَّ وعلا- ورسوله، ممَّا يدلُّ على أنَّ العلمَ بحالِ المدعوين من جهة تقبُّلهم أو امتناعهم أو غفلتهم أو محاجَّتهم أو شُبُههم، أو كان ذلك فيما يحتاجون إليه من تصحيح، أو من تبیین، أو من منع، أو من تحذير، أو من ترغيب كما جاء في هذه الآيات، وكما جاءت في دلائل النُّصوص.
- وإن أردتَ أيضًا أن تنظرَ فيما جاء عن النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فإنَّ هذا كثيرٌ بالمرَّة،

□ فحينما بعث معاذًا إلى اليمنِ كانَ ذلكَ منَ أعظمِ ما يكونُ، لما قال النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»^١، فلمَّا قَرَّرَ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَنَبَّهَ مُعَاذًا إِلَى ذَلِكَ، دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَى الْحَدِيثِ مَعَهُمْ مَا قَدْ يَخْتَصُّونَ بِهِ وَلَا يَحْتَاجُهُ سِوَاهُمْ، فَيَكُونُ الدَّاعِيَةُ مَعَ مَا لَدَيْهِ مِنْ أَصْلِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنْ الْقُدْرَةِ عَلَى النَّظَرِ فِيمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، أَوْ فِيمَا يَرِيدُونَهُ، أَوْ فِيمَا يَتَعَلَّقُونَ بِهِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَتَمَرِّسًا لَدَيْكَ، مُسْتَعِدًّا لَهُ، قَادِرًا عَلَى إِظْهَارِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَالْجَوَابَ عَلَيْهِ. هَذَا فِي قِصَّةِ مُعَاذٍ.

□ أَيْضًا حَدِيثٌ بَرِيدٌ لَمَّا أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْغَزْوِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْوَصَايَا وَالْحَدِيثِ مَا يَخْتَصُّ بِأَحْكَامِ الْغَزْوِ، «لَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»^٢، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا كَبِيرًا»^٣، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»^٤، إِلَى مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ.

□ وَفِي حَدِيثٍ بَرِيدٍ أَيْضًا قَالَ: «فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ»، وَقَالَ: «فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخَفِّرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخَفِّرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ»^٥، كُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ مَا يَلِيقُ بِمَنْ تَصَدَّى لِبَابِ مِنْ أَبْوَابِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَكُونَ مُسْتَحْضِرًا لِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ. وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَفِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

• وَلِهَذَا كَلَّمَ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- فِي كِتَابِهِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ لَهُ سِيَاقَاتٌ مُنْتَظِمَةٌ لَهَا دَلَالَتُهَا وَمَعَالِمُهَا، وَمَا يَجِيءُ فِي كِتَابِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- مِنْ مُحَاوَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَهُ مَا يَخْصُهُ، إِذَا جِيءَ إِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْحَجْدِ كَانَ لَهُمْ حَدِيثًا يَخْصُهُمْ، قَالَ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 64]، هَذَا اسْتِحْضَارٌ وَإِظْهَارٌ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِشْرَاكِ غَيْرِ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى التَّثَلُّتِ وَنَحْوِهِ.

• لَمَّا يَأْتِي قَوْلُ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- فِي الْكَلَامِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَتِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفُونَ﴾ [الطور: 35 - 37]، كَانَتْ آيَةُ تُنْزِلُ الْجِبَالَ، وَتُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ، وَلِذَلِكَ جَبْرِ بْنُ مُطْعَمٍ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: "كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ" وَهُوَ مُشْرِكٌ لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدَ! حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- بِهَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَكْوَانُ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ، وَلَا بِخَلْقِ اللَّهِ، وَلَا بِتَصْرِيفِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- فَحَاجَّهُمُ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- بِالْحُجَّةِ الْبَيِّنَةِ الظَّاهِرَةِ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [الطور: 35]، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟! ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، كُلُّ ذَلِكَ

^١ صحيح البخاري (1496).

^٢ مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيره (1731).

^٣ أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (135)، والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص322) مطولاً، والطحاوي في شرح معاني الآثار (5184) واللفظ له.

^٤ مسند أحمد (2625)، سنن البيهقي (16699).

^٥ صحيح مسلم / باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيره (3261).

الجواب عنه: لا، فلا يمكن أن يكون النبي مخلوق من نفسه، ولا يمكن أن يكون هو الخالق وهو يعلم أنه ليس بخالق.

قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 36]، فلم يبق إلا الرابع وهو أن الله -جلّ وعلا- هو خالقهم، فلأجل ذلك كانت هذه الآية دالة على الفطرة، وعلى إقرار العبودية لله -جلّ وعلا- وفي نحو ذلك آيات كثيرة أوردناها.

• على كلّ حال هذا باب من أبواب النظر في أحوال المدعوين، وكما قلت لكم: لو جئنا إلى آيات الملحدين لرأينا شيئاً من مثل هذه الآيات، لو جئنا إلى آيات المنافقين وما فيها من ذكر الله -جلّ وعلا- من أحوالهم وإظهار سرائهم وما كان في خاصّتهم حتى كانت سورة التوبة التي جاء فيها ذكر المنافقين كثيراً سُمّيت "المشققة" لأنّها شَفِشَتْ ما كان خفياً من أعمالهم وأحوالهم؛ فدلّ هذا على ما يكون عليه الدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- من إظهار ذلك.

طريقة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مع المدعوين، وكيفية التعامل معهم.

❖ حال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مع قرابته، فالقربة لهم حقٌّ، وأنزل الله -جلّ وعلا- فيهم آية تُتلى اليوم القيامة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، فدلّ على أهميّة ما يلزم الدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- من الاهتمام بأقاربه وذويه، زوجة، أو والدًا، أو ولدًا، أو أختًا، أو أخًا، أو عمًا، أو عمّة، أو خالًا، أو خالّة؛ ولذلك النبي -صلّى الله عليه وسلّم- نادى قريشاً وهم قبيلته التي نتج إليهم ويجعلهم عصبه لهم- ثم نادى العباس، ثم نادى صفية عمّة رسول الله، «اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» ، ثم نادى ابنته فقال: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّبِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^٦، وما أعظمها من عبارة، وما ألطفه من معنّى! وما أجمله من حديث! فإنّ ما يكون من دعوتي إليك لا يغني أنّي والدك وأنني أبوك، وأنك بضعة منّي، فأنا سأبذل لك المال والدنيا، وما يتعلّق بأشيانك، وكذا... وكذا... إلى غير ذلك ممّا يحتمله هذا المعنى؛ أمّا جانب الآخرة والتّوحيد والإيمان وتحقيق العبودية لله، وأداء حقّ الله -جلّ وعلا- في أصله وفي فروعه، وفي الواجبات وإتيانها، والمصارعة إلى المستحبات، والبعد عن المحرّمات؛ فإنّ ذلك لا يغني أحد عن أحد، ففيه من المعنى العظيم والدلالة الكبيرة على ما هو مثاليّ يُحتذى لكلّ داعية إلى الله -جلّ وعلا- وأيضاً فيه مراعاة حقّ القرابة، وما يلزم الإنسان لهم، وأنّ الحقوق باقية محفوظة يلزم الدّاعية التّوفية بها، ولذلك النبي -صلّى الله عليه وسلّم- استعدّ لها لما كان عليه واجباً في النّفقة والقيام على الولد، وقضاء حاجته.

❖ حال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مع أصحاب الجاه، ومن لهم قدر، ومن يجتمع إليهم ويحتمي بهم ذووهم في فتح مكّة، قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»^٧، وهو الإبقاء على شرف أهل الشّرف، وقدر أهل القدر، وفضل أهل الفضل، وأنّ الإسلام ما جاء لينتقصهم، ولا ليضع

^٦ أخرجه البخاري (4771) واللفظ له، ومسلم (206)
^٧ صحيح مسلم (3338).

العظماء، أو ليتشقى فيهم، ولا أن الدّاعية أراد بدعوته أن يدعوا إلى نفسه، وأن ينتقص سواه؛ لا، وإنما هو إقامة حقّ الله -جلّ وعلا- وبذل الشرائع، والأمر بالواجبات، وما سوى ذلك من الحقوق والأقدار والمقامات فهي محفوظة مصونة بأصل الشرع، وبما جاء في كتاب الله -جلّ وعلا- وسنة نبيه -صلّى الله عليه وسلّم.

- ولذلك لن ترى في قانون ولا دستور ولا ملّة ولا شرعة ما وُجد في شرع وفي ملّة محمد -صلّى الله عليه وسلّم- من الكمال والوفاء، ودقائق المسائل والأحكام التي جاء فيها جملة هذه الاعتبارات، رأيت الكبير وما له من الحق الجار وما له من الدرجة، الزوجة وما لها من الفضل، والأولاد، حتى الأعباء والإيماء؛ أشياء كثيرة يعجب منها لإنسان؛ حتى الهيمة لها حقوق، فقال -صلّى الله عليه وسلّم-: «في كل كبد رطبة أجر»^٨، وقال: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدَهَا»^٩، يقولها النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في حُمرة تطير.
- ولذلك نبيّه كثيرًا إلى أن جملة من الطلبة الذين درسوا العلم وتعلّموا أحكامه وهم لا يزالون في عنفوان الشباب ولا زالوا في فتوة شبابهم؛ تجد أنّهم يكون لهم اندفاع إلى ما تعلّموا، فلربّما رأوا كبيرًا فقلّلوا من شأنه، أو ضلّوه، أو عظّموا أمره، أو لم يعتبروا به، وربّما جاؤوا إلى إمام مسجّد يؤمّهم من قديم الزّمان وهو الذي يحفظهم القرآن، وهو الذي عُرف بخير كثير وإن كان لديهم من الجهالات أو الخطأ أو النقص أو غير ذلك؛ تجده أسرع ما يظهر نقيصته وكأنّه يريد أن يتشقى فيه! ما كان هذا طريق نبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم-! فإنّ الحقّ أحقّ أن يتّبع، وإنّ الهدى يظهر، وإنّ الأمر يبيّن، وإنّ القدر يبقى، فيبيّن الإنسان ماذا عنده، ويكون ذلك مع إبقاء لفضل صاحب الفضل، وإكرام ذي الشّية وما له من سابقة في الإسلام، وما له من إمامة للمسجّد، وما له من فضل في كذا وكذا.
- أو أنّه يأتيه عند قومه وعند مجموعته حتى يتفرّج عليه أنّه يريد أن يظهر خطأه وخلّله، وليس كذلك! بل لو أنّه أخذه على الانفراد وعلمه وقال: إنّك أولى بتعليم النّاس على هذه الجادة وهذه الطّريقة، وأنت شيخنا، وأنت الذي لم أزل أذكرك صغيرًا وأنا أصليّ وأنعلّم الصّلاة منك؛ كلمات فيها شيء من تطييب النفوس وإكبارها، وفيها إظهار للحقّ ودعوة إلى الامتثال إليه، ولذلك النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال لأحنف بن قيس: «فِيكَ خَصْلَتَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا هُمَا؟ قَالَ: «الْجَلْمُ وَالْأَنَاءُ»^{١٠}، هو دعوة إلى الاستمسك بها، وإرادته وجه الله -جلّ وعلا- بما يكون من تخلّي الإنسان بها، وغير ذلك ممّا يتبعه.
- ❖ حال النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- مع الصّغار، كيف يكون في هدايتهم، وتعليمهم، وتربيتهم، ابن عمرو هو من صغار الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- يقول النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ»^{١١}، وهذا فيه إشارة لما ذكرناه من المسألة قبل هذه؛ فأثنى عليه بما فيه من حرص على الخير، وإقبال عليه، ورغبة فيه، ونحو ذلك من الأشياء، ثم أشار إليه بوصية جليّة عظيمة تدلّ

^٨ صحيح البخاري (2201).

^٩ سنن أبي داود (2303).

^{١٠} مسلم، كتاب الإيمان، باب: الأمر بالإيمان.

^{١١} صحيح البخاري (1060)، صحيح مسلم (4534).

على فقه النبي -صلى الله عليه وسلم- وما أوحى الله إليه من هذه الشريعة السمحة التي هي أقرب إلى القلوب، وقد أوتي من حسن اللفظ وجوامع الكلم ما يأسر القلوب، ويقرب النفوس، ويسهل الحق، ويكون أدعى للامتثال، مع ما في قيام الليل من التعب والمشقة، وترك لذيذ النوم، وما يلحق الإنسان أحياناً من تعب وعمل شديد في نهاره ونحو ذلك، إلا أن عبد الله لم يزل على هذا العمل، ولم يزل ممتثالاً بوصية النبي -صلى الله عليه وسلم- لعظم وصيته -صلى الله عليه وسلم- وما كان فيها من هداية له إلى ذلك، وحسن توجيه له فيه.

❖ من أحوال النبي -صلى الله عليه وسلم- في مراعاة أحوال المدعوين، لما يأتي إلى الباعة في الأسواق

ويدخلها، ولما يرى النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك العيش فيه بللاً، فما كان له إلا أن يقول: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَي يَرَاهُ النَّاسُ؟»^{١٢}، ما قال له: أنت غشاش! أنت فيك وفيك! وإنما توجيه إليه أنه إن كان ذلك فعل منك مقصوداً بكتيم العيب وإخفائه فذاك مخالفة منك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أرشده إلى تركه، وإن كان ذلك على سبيل الخلل أو الخطأ وعدم النظر فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أرشده أن ثم بلل في أسفل ذلك الإناء الذي فيه عيش ونحوه، وأمره أن يظهره. فهذه وصايا النبي -صلى الله عليه وسلم-.

❖ حال النبي -صلى الله عليه وسلم- مع النساء، فكان يعلمهن، ويأمرهن بالخير، ويقربه لهن، لما كان في

خطبة العيد، واجتمع الناس كلهم، ومع ذلك لما انتهى النبي من وعظ الرجال تحرّك إلى النساء فوعظهن بما يليق بهن، وبما يختص بهن، ولأنه مع البعد، ومع كونهن بعد الرجال، فربما فات عليهن من سماع الموعظة، والاستفادة من الخطبة ما جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يخصهن بذلك.

ولما طلبوا منه أن يجعل لهن يوماً يُذكرهن فيه خصهن النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فعلم أن الداعية قد يخصص أقواماً بما يليق بهم إذا كان له وجه صحيح، فإن النساء يستحين عند الرجال، ولهن من الأحكام ما تخصصهن ما لا يمكن إظهاره عند الرجال أو الأجانب، أو غير ذلك؛ وإلا فإنه من جهة الأصل فالعلم ذائع مشهور، لا يكون سراً، ولذلك جاء فيما أورده البخاري عن عمر بن عبد العزيز: "فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرّاً"^{١٣}، فإذا سرّ بالعلم ذهب بركته، لكن قد يختص بأقوام إما لكونهم أن تلك المسائل تخصهم، أو لكون غيرهم لا يستطيع إدارك ما أدركوه لتقدمهم في العلم، فيجعل لهؤلاء مجلساً يناسبهم، ولهؤلاء آخر يليق بهم.

❖ وكان من حال النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أسرع إلى أصحابه في الوقوف معهم في مواساتهم، وهكذا ينبغي للداعية إلى الله -جلّ وعلا.

^{١٢} صحيح مسلم (150).

^{١٣} صحيح البخاري / كتاب العلم / باب كيف يقبض العلم ص: 50

- وفي حديث عتب بن مالك لما طَلَبَ أن يُصَلِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته وهو كفيفٌ يحتاج إلى أن يكون ثَمَّ مَصَلًى، فجاء النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وذهبَ إلى بيته وطَيَّبَ خاطره، حتى يُصَلِّيَ فيه إذا تعدَّر عليه أن يصلي إلى مسجدِ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ولَمَّا يَكُونُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في بعضِ المواطنِ والمصابتِ أن يوجَّهَ تلكَ العجوز التي طلبت من النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن تُشْفَى ممَّا أصابها من الصَّرعِ، قال: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكَ»^{١٤}، قالت "فادعُ الله لي ألا أتكشَّف"، فلمَّا كَانَ الحالُ حالَ طلبٍ ورغبةٍ في شيءٍ وثَمَّ أمرٌ أعلى منه درجة وأرفع منه قدرًا بيَّن لها النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إن شِئْتَ أَجَبْتُكَ إلى طلبك، «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ»، فرقاها النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إليه «وَلَكَ الْجَنَّةُ»، فكان منها الصَّبْرُ-رضي الله تعالى عنها وأرضاها.
- فاطمة لما طلبت من النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خادماً وكان قد أثَّرَ فيها العجنُ والرَّحَى، وما يكون من الطَّحنِ ونحو ذلك، فقال النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أُوتِيتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، فَكَبَّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ»^{١٥}، فهنا اعتبارٌ لأحوالهم، وتلمُّسٌ لِمَا يكون الأولى بهم.
- هنا جئنا إلى بعضِ الأحوال التي يُطلبُ مِنَ الدَّاعِيَةِ ما لا يَحْسُنُ طلبُهُ، يأتي الطُّفِيلُ بن عمرو الدوسي، فيقول: يا رسول الله، إِنَّ دَوْسًا عصت -وهم قبيلته وذووه- وأبت، فادعُ الله عليهم، يقول الصَّحَابَةُ: ظَنَّنَا أَنَّهُ سيُدْعَى عليها فتهلك، فكانَ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن قال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَنْتَ بِهِمْ»^{١٦}، فكانت هدايتهم وإتيانهم للنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وملاً للإيمانُ بِشَاشَةِ قُلُوبِهِمْ، حتى ارتووا من معينِ النُّبُوَّةِ، وتأسَّوا بمحمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فكانَ لَهُمُ القدوة والأسوة.
- إذا نظرنا إلى مثلِ هذه فنعرِفُ ما يلزم الدَّاعِيَةِ مِنَ اعتبارِ الأمورِ في مواقعها، وعدمِ الاستعجالِ إلى أمرٍ يكون فيه البلاءُ والفتنة، فلو أَنَّهُ طُلِبَ أن يدعوا على أقوامٍ، أو النَّظَرُ منهم ما يُستفدُّ به ويُغضبُ ويحصلُ به شيءٌ من خروجِ الإنسانِ عن طوره؛ فَإِنَّهُ ينبغي له أن يعودَ إلى رشده، وأن يسلكَ مسكًا رشداً كما كان نبيُّنا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.
- قِصَّةُ الأعرابي الذي جمع أنواعًا من الانتهاكاتِ، فأُيِّ شيءٌ أعظم من أن يأتِيَ إلى مسجدِ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والصَّحَابَةُ يَصَلُّونَ وَيَسْتَحُونَ، ويقرؤون القرآن، ورسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كذلك في المسجدِ، ثُمَّ يرفعُ ثيابه ويظهرُ عورته، ثم يبُولُ في المسجد! صنعَ شيئًا كبيرًا! فلا هو الذي بهم اقتدى، ولا بفعله تأسَّى، ولا هو الذي سلِمَ من هذا وذاك!

^{١٤} صحيح البخاري (5247).

^{١٥} صحيح البخاري (5870).

^{١٦} صحيح البخاري (2734). صحيح مسلم (4592).

فغضب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فدلّهم على ما يجب على الدّاعية من الصّبر على المدعو وعدم الاستعجال عليه، فقال: «لَا تُزْرِمُوهُ»^{١٧}، لأنّه في حال بولٍ، وإذا قطع الإنسان بولّه فهذا يزيد غيظاً ويؤذيه، ثم أيضاً قد يكون سبباً لأن يُدنس المسجد وتنتقل النّجاسة من مكانٍ إلى مكانٍ، ثم إنّ ذلك أُمْنَع له من الاستجابة، فإنّه إذا قُطِع عليه بولّه ربّما خرج ولم يعد؛ فلم يستفد، وربما عادَ إليها مرة أخرى ونحو ذلك.

فلما قضى بولّه قال النّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ، لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»^{١٨}، فهكذا ينبغي.

- معاوية بن الحكم لما تكلم في الصّلاة، النّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ما عَظَّمَ عليه، الصّحابة بدؤوا يضربون على أفخاذهم، حتى قال: "وا ثكل أمّاه" يعني خاف، فما كان من النّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- إلا أن قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»^{١٩}.

فهذا ذكر وبيانٌ وتذكيرٌ بطريقة النّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- مع المدعوين، وكيفية التّعامل معهم، والاستعداد لذلك، فينبغي للدّاعية أن يلحظ ذلك في كلّ أحواله، إن أراد أن يدعو جازاً، أو يُحدّث إمّاماً، أو أن يخطب جمعةً، أو أن يعظ والدّاً، أو يُنبّه أخاً، أو يُعلّم ولدّاً؛ فإنّه في كلّ هذه الأحوال لا ينفك من أن يكون على حالٍ أتمّ، وأن يكون في ذلك مستمسكاً لأُمُورِهِ، عارفاً بدعوته، لا يُخرجه عن طوره ولو نيل منه، أو تكلّم فيه، أو حصل له ما حصل.

- تعرفون أنّ النّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- لما نادى في قريش وقال: «إِنِّي إِنَّمَا أُريدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجَزِيَّةَ»^{٢٠}، فقالوا: قل وعشر أمثالها. فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^{٢١}، فما كان منهم إلا أن قال أبو لهب: تبّاً لك، ألّ هذا جمعتنا! فهل كان منه إعادة للسبّاب أو الشّتيمة أو الانتقاص؟! لا، احتمل ذلك، وأنزل الله -جلّ وعلا- آيات تتلى في كتاب الله -جلّ وعلا- إلى يوم القيامة ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5]، إلى آخر الآيات التي في سورة ص، وما فيها من ذكر حالهم، وعدم استجابتهم، وأيضاً ما أنزل الله -جلّ وعلا- في أبي لهب في سورة تَبَيَّن عن سوء حاله، وما يُختم له، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

- من المسائل المهمّة التي ينبغي للدّاعية أن يلحظها أيضاً: أنّ ثَمَّ مسائل ليس من السّهولة نقل النّاس عنها، إمّا لتعلّقهم بها، وتلقّيهم لها أباً عن جدٍّ، وإمّا لكون ذلك ممّا تتوق إليه نفوسهم، فيصعب عليهم أنّهم يستجيبون، ومع ذلك لا يمكن للدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- أن يقف، ولا يمكن للدّاعية أيضاً أن يأتي بما يكون عاقبته عدم الاستجابة أو الامتناع وعدم الموافقة.

^{١٧} صحيح البخاري (6025-144/20)، صحيح مسلم (685-325/2).

^{١٨} المصدر السابق.

^{١٩} مسلم (537).

^{٢٠} مسند أحمد (1932). وصححه أحمد شاكر.

- لما كانت الأعياد والأفراح هي أكثر ما يفرح به الناس، ويعتدون له العدة في طول عامهم، وكانت أعياد المشركين، فما كان من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أن قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْفِطْرِ، وَيَوْمَ النَّحْرِ»^{٢١}، فجعل لذلك بديلاً.
- والكلام على البديل ينبغي أن يكون كلاماً واضحاً جلياً، لا يُظنُّ أنَّ الكلام عن البديل أنَّ كلَّ مسألة تُهيَّ عنها شخصٌ أو دُفعَ عن فعلها أن يجعلَ له بديلاً ممثلاً لذلك! ليس هذا كذلك؛ بل ثَمَّ مسائل جاء الشرع بإظهار البديل وبيانهِ فهي هلا، ويمكن المصير إلى ذلك، كما لو كانوا في حفلةٍ من حفلاتِ العرس ونحوها يستعملون المعازف ونحوها؛ فإنهم يُهون عن ذلك، ويُعلِّمون أنَّ البديلَ في هذا ما أباح الله -جلَّ وعلا- من ضربِ الدُفِّ ونحوه للنساءِ خاصَّة على ما ذكره أهلُ العلم من القيم والضوابط المعروفة في هذا.
- ولا يعني ذلك أن يُقال أنَّ الناس يحتاجون إلى المعازف إذن نصير إلى ما يصير إليه بعض الناس الآن من أن نُحدِّثَ لهم أصواتاً كأصواتِ المعازف لا تُستعمل فيها تلك الآلات؛ هذا كُلُّه ضربٌ من التكلُّف، أو عدمِ حسنِ العلمِ بالفقه في الشريعة، فإنَّ ذلك عندَ جمعٍ من أهلِ العلم كثير لا يعدو أن يكونَ بابَ من أبوابِ المعازف والموسيقى ونحوها.
- إذن نحن نقولُ بالبديل إذا كان في الشرع بديلاً صحيحاً أصيلاً على وجهٍ منضبطٍ، وإلا فقد يكون ثَمَّ بديل لكن هذا البديل لا يُشرع على ذلك النَّحو، أو لا يجوزُ على هذا الوجه، فلأجل ذلك إذا أمكن أن يَجِدَ بديلاً خاصَّةً في الأمور التي يكون تعلقُ الناسِ بها أكثر؛ فإنَّه ممَّا يُعنى به الدَّاعيةُ إلى الله -جلَّ وعلا- أن يفتحَ لهم هذا الباب، وأن يُبيِّنَ لهم ذلك الحكم على وجهٍ مقاربٍ، بدون ما يكون فيه منعٌ لهم ممَّا أُلْفوه، وعدمُ إخبارٍ لهم بما يؤذَن لهم فيه، ويليق بهم من تعاطيه.
- لما كان الأمر كذلك فينبغي للدَّاعية في مسيرته أن يتعلَّم هذه المسائل، خاصَّة أنَّ مسائلَ الإشكال التي يقعُ فيها الدَّاعية مع قومِهِ، أو مع أهلِهِ، أو مع جيرانِهِ، أو مع أهلِ مسجده؛ هي مسائل يعرف فيها الإشكال سابقاً، فنبغي له أن يتأهَّبَ إلى طريقةٍ مناسبةٍ لحلِّها، والتأهَّب هنا أوَّل ما يكون بتمامِ العلمِ بأحكام تلك المسألة وما يتعلَّقُ بها. هذا من جهةٍ.
- من جهةٍ ثانية: عليه أن يعرفَ الطَّريقةَ المناسبةَ التي يكون فيها إيصالُ هذا المعنى إليهم بدون ما إشكالٍ أو حصولٍ ما بأسٍ، فإذا أمكنَ ذلك فلا شكَّ أنَّ هذا هو الواجب المتعيَّن عليه، فأحياناً يكونُ هذا مثلاً قبل أن يأتي موعد لهذا الأمر إذا كان مثلاً مخالفةً شرعيَّةً معروفةً متعلِّقةً بزمانٍ أو بمكانٍ أو بموتٍ شخصٍ؛ فيتأهَّبَ لهذا، يعلمهم ما يليق.
- مثلاً: في إحياءِ مولدِ النبي -صلى الله عليه وسلم- وما يكونُ فيه من الاحتفالِ وجعلِهِ عيداً؛ هذه من المسائل التي يكثرُ الكلام فيها، فينبغي لطالبِ العلم أن يُعلِّمَ الناسَ بما للنبي -صلى الله عليه وسلم- من المكانةِ والمنزلةِ، لأنَّ أكثرَ ما يُشَبَّه بالشُّبهِ على مَنْ أنكر ذلك أنَّه لا يحبُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- فإذا ابتدأتَ بذكرِ ما للنبي -

^{٢١} مسند أحمد (13359)، وأخرجه أبو داود (1134) واللفظ له، والنسائي (1556).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْمَنْزِلَةِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْمَكَانَةِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْفَضِيلَةِ، وَمَا جَاءَ فِي حَقِّهِ مِنَ الْحَقُوقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَسَنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَفِيتَ ذَلِكَ.

• ثم أيضًا لما كان هذا له وقت وألفه النَّاسُ منذ زمانٍ؛ أن يُبَيِّنَ أَصْلًا أَصِيلًا فِي التَّأْسِي وَالْإِقْتِدَاءِ وَالْإِهْتِدَاءِ، حَدِيثٌ عَامٌّ، لِأَنَّ النَّاسَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَأَمَّلُوا، يَضْرِبُوا بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ، ثُمَّ إِذَا كَانَ الْمَكَانُ مَنَاسِبًا طَرَحَ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ، وَكَانَ لَهُ قَبُولٌ بِقَدَرِ مَا، أَوْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ عَرَضٌ لَهُ عَلَى أَحَادِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ فِي حَالِ اجْتِمَاعِهِمْ يَكُونُ لَهُمْ مِنَ النَّشْوَةِ وَالْقَسْوَةِ مَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ، أَمَّا إِنْ كَانُوا مُنْفَرِدِينَ فَيُمْكِنُ أَنْ يُوَطِّدُوا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَّثَ هَذَا وَحَدَّثَ هَذَا، وَأَخَذَ بِإِمَامِهِمْ، وَبَيَّنَّ لَهُ؛ سَيَكُونُ ذَلِكَ أَقْوَى لَهُ. أَيْضًا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ إِمَامِهِمْ، فَإِنَّهُ إِذَا أَحْسَنَ الْحَدِيثَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَرُبَّمَا هُوَ الَّذِي كَفَلَ لَهُ الْقَوْلَ وَالْدُّخُولَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَنْفَع.

• وَمِنْ أَكْثَرِ مَا يَكُونُ بِهِ سَبَبُ الْإِشْكَالِ فِي أَحْوَالِ الْمَدْعُومِينَ: أَنَّ بَعْضَ الطَّلَبَةِ وَالِدُّعَاةِ لَا يَعْرِفُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَّا الْإِنْكَارَ، يَقُولُ: هَذَا خَطَأٌ، هَذَا خَطَأٌ، هَذَا كَذَا..! فَلَوْ أَنَّه عَلَّمَهُمْ وَبَدَأَهُمْ بِالدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ لَمَا احتَاجَ إِلَى بَيَانٍ كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطَاءِ؛ وَلَامْتَثَلُوا ابْتِدَاءً مَا ذَكَرَهُ لَهُمْ، فَكَأَنَّهُ كَالْمُرِّيِّ لَهُمْ، أَوْ كَأَبِيهِمْ، أَوْ كَشَيْخِهِمْ الَّذِي لَا يَعْصُوهُ، وَرُبَّمَا كَانَ كَثِيرُ مَمَّا يَكُونُ فِيهِ مَفَارِقَةٌ لِلْكَلَامِ اللَّطِيفِ وَالْخُلُقِ الْجَمِيلِ، وَمَا يَحْسَنُ بِالطَّالِبِ فِي اعْتِبَارِ ذِي الشَّيْبَةِ، وَأَوْ ذِي الْكِبَرِ، أَوْ الْقَرَابَةِ، أَوْ الْجِيرَانِ، أَوْ مَجْمُوعِ النَّاسِ، فَإِذَا اسْتَجْمَعَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ فَلَا إِخَالَهُ إِلَّا - بِإِذْنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا- لَهُ قَبُولٌ، وَلَهُ أَثَرٌ، وَإِنْ كَانَ ثَمَّ امْتِنَاعٌ أَوْ مَرَاجَعَةٌ فَإِنَّهَا سَتَكُونُ بِطَرِيقَةٍ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ، وَعَدَمِ الاسْتِعْجَالِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرْجَى الْمَوْضُوعُ أَوْ يُؤَجَّلَ إِلَى وَقْتٍ لَاحِقٍ، فَيُحَدِّثُهُمْ وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِقَبُولِهِمْ.

• **لا تترك الأمر حتى يقع فتذكره، خاصّة أنك تعلم أنه يقع.** لِأَنَّ النُّفُوسَ فِي وَقْتِ تَعَاطِيهَا لِذَلِكَ الْأَمْرِ تَكُونُ أَكْثَرَ إِقْبَالًا عَلَيْهِ وَامْتِنَاعًا مِنْ ضِدِّهِ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِي خَطَأٍ إِذَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُحَدَّثٍ أَوْ بَدْعَةٍ، أَوْ فِعْلٍ مُحَرَّمٍ، فَلَوْ جِئْتَ إِلَى شَخْصٍ وَقُلْتَ لَهُ: الزَّنا مُحَرَّمٌ، وَبَيَّنَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَذَا وَكَذَا، وَبَيَّنْتَ لَهُ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْوَعِيدِ؛ لَرُبَّمَا قَبِلَ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مَمَّنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ، لَكِنْ لَوْ جِئْتَ إِلَى زَانٍ حَالِ زَنَاهُ وَتَقُولُ: لَا تَزِنْ، الزَّنا حَرَامٌ! فَهَذَا طَبْعًا قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا فِي وَقْتِهِ، لَكِنَّا نَقُولُ: إِذَا أَمَكْنَ أَنْ تُعَلِّمَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ أَقْبَلَ لَهُ، فَإِنَّ قَبُولَ هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُهُ وَهُوَ مُسْتَمِعٌ إِلَيْكَ وَمَنْصَتٌ لَكَ؛ سَيَكُونُ أَكْثَرَ قَبُولًا وَأَسْرَعَ إِمْتِثَالًا مِنْهُ إِذَا مَا كَانَ عَلَى ذَلِكَ الْخَطَأِ وَتَعَاطَى لَتِلْكَ الْمَعْصِيَةِ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْ حَالِ الْمَدْعُوِّ أَنَّهُ تَعَاطَى ذَلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَكُونُ حَالُ تَعَاطِيهِ؛ بَلْ يَسْبِقُهُ حَتَّى يَمْنَعَ حَصُولَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَقْبَلَ لِقَبُولِهِ، وَالْإِمْتِثَالُ لَهُ.

؟ حديث المسيء في صلاته: إنسان لا يحسن يُصَلِّي. ما معنى ذلك؟

• معنى ذلك أَنَّ صَلَاتَهُ كَانَتْ بَاطِلَةً، يَدْخُلُ وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَالِسٌ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَيُصَلِّي ذَلِكَ الرَّجُلُ صَلَاةً يَسْتَعْجِلُ فِيهَا، فَيَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَيَسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ، ثُمَّ يَعُودُ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ الثَّلَاثَةَ، حَتَّى قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، فَعَلِمَنِي؛ فَلَمَّا تَهَيَّأَتِ النَّفْسُ لِقَبُولِ هَذَا عِلْمِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ،

ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^{٢٢}، الحديث.

• تأمل حال النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مثلِ هذا، كيفَ لم يَعْنِفْهُ، لم يقل: كيفَ أنتَ تصلي! أنتَ الآنَ كذا أو كذا!

لا، مَنْ كَانَ عَلَى خَطَأٍ فَيُعَلِّمُ، وَمَنْ كَانَ عَلَى جِهَالَةٍ فَتُنْفَى عَنْهُ، وَهَكَذَا مِمَّا يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَسْتَحْضِرَهُ.

• والأحاديثُ كثيرة، وأحوالُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في ذلكَ متنوِّعة، والنَّاسُ بَيْنَ طَرَفِي نَقِيضٍ: ✓ منهم مَنْ يَأْتِي بِالْأَمْرِ عَلَى أَيِّ وَجْهِ.

✓ ومنهم مَنْ يَسْتَأْنِي بِالنَّاسِ حَتَّى يَفْعَلُوا كُلَّ مَنْكَرٍ، وَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا.

✓ الْمُؤَفَّقُ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ.

والْحَقُّ بَيْنَ هَذَيْنِ، أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ الْهَدْيَ وَالصَّوَابَ، وَيُدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَالْهَدْيِ وَالتَّوْحِيدِ، وَإِلَى فَرَائِضِ الشَّرِيعَةِ وَأَوَامِرِهَا، وَيُنْهَوْنَ عَنِ النَّوَاهِي وَمَكْرُوهَاتِهَا، لَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ مَعَ اعْتِبَارٍ مَا يَحْتَفُّ بِهِ، وَالتَّنَظُّرُ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ فِي قَبُولِهِ، وَيَلْتَمِسُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَنَاسَبُ حَالَ الْمَدْعُوِّ، إِنْ أَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ اسْتَدَلَّ، وَإِنْ أَحْتَاجَ إِلَى تَرْغِيبٍ رَغَّبَ، وَإِنْ أَحْتَاجَ إِلَى ذَا أَوْ ذَاكَ فَعَلَّ، فَيَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْفَعَ لَهُ، إِنْ تَمَكَّنَ الطَّالِبُ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ فِي دَعْوَتِهِ مِنَ الْقَبُولِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ.

وصلَّى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



^{٢٢} صحيح البخاري (718)، صحيح مسلم (607).